

عمار بلحسن سوسيولوجيا.. الرؤية الأدبية والمعتك الاجتماعي

د/ عبد القادر رابحي
جامعة مولاي الطاهر، سعيدة.

[أكتب وبإيمان أن هذه الحقبة ستم وسنبن أنفسنا من جديد...]
ثمة أمل في الطريق المظلم. لا تبكين. كوني شجاعة... [١] عمار بلحسن

مقدمة

شكلت مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي نفق عبور مأساوي ليس بالنسبة لما سيكون عليه الخطاب الفكري والثقافي في المرحلة اللاحقة، ولكن، وهذا هو الأخطر، بالنسبة لجل المثقفين الذين كان لديهم الحدس الكافي والحساسية اللازمة لاستشراف الحقبة المظلمة من تاريخ الجزائر المعاصروما حملته من متغيرات في البنية المؤسسة للدولة الوطنية، فكانت أقلامهم مغطوسة في حبر المرحلة وكتاباتهم متلونة بتلوينات حشرات أنفاسهم وهي تشاهد المد القادم من بعيد يأخذ في غير إنذار ظاهر ولا انتظام جل الطموحات المعلقة على أبواب مرحلة الاستقلال الوطني إلى هاوية الحلم. وهي بهذا الحضور الكثيف والثقيل في مدونة الأزمنة المتعاقبة على الجزائر، تعد المرحلة الأكثر حدة في طرح المقولات الفكرية والسياسية والثقافية والنقدية المتروكة في باحة البيت الوطني بدون حل، والأكثر غموضا وتعصبا وابتعادا عن العقل في إيجاد إجابات جذرية ومقنعة لها.

وربما بدت هذه المرحلة أبعد ما تكون عن واقع العشرية الثانية من الألفية الثالثة وما فرضته وتفرضه من تغيرات جذرية على مستوى الفعل المرتبط بالحراك الاجتماعي في المجتمعات العربية عموما والمغاربية على الخصوص، وربما صار الكثير من المثقفين والدارسين والمبدعين ممن عبروا

النفق الثماني عبورا حقيقيا أو عبورا افتراضيا أو لم يدخلوه أصلا غير معنيين بصورة مباشرة بما أفرزته فترة الثمانينيات من القرن الماضي من نتاج فكري وثقافي وإبداعي نظرا لعدم توفر شروط الربط المعرفي والمنهجي الذي يبحث من مسببات النتائج التي آل إليها الواقع الحالي في ما سبقها من إفرازات فكرية ومعرفية هي على درجة كبيرة من الأهمية وعلى درجة وثيقة من الارتباط باللحظة الآنية لحركة التاريخ، وكذلك نظرا لعدد التشابكات والتعقيدات التي تعكسها صورة الواقع وهو يحاول أن يكتب صفحة جديدة من التصورات الأولية لما ستكون عليه هذه المجتمعات في العاجل القريب وفي الآجل البعيد.

غير أننا ونحن نحاول العودة إلى تراكمات ما أنتجته ثمانينيات القرن الماضي وما تلاها في التسعينيات في الجزائر خاصة، من أفكار سياسية وثقافية واجتماعية، نسجل ضرورة التوقف طويلا عند مجموع هذه الأفكار وتمظهراتها على مستوى الخطابات وعلى مستوى المشاريع وعلى مستوى تأثيرها في تشكيل جيل من المثقفين والدارسين الذين أخذوا على عاتقهم التصدي بالدراسة والتحليل لعدد الظواهر المتعلقة بمجموع الإشكاليات المطروحة في هذه الخطابات، وسيلاحظ الدارس مدى ثراء الفترة الثمانية نظرا لانفتاح حقل الممارسة الفكرية والثقافية على النفق المظلم، من حيث إنتاج خطابات تحاول قراءة التحولات التي كانت تجري بصورة تحتانية في بنية المجتمع الجزائري خاصة، من وجهات نظر ليست متباينة على مستوى التوجهات الإيديولوجية والطرح المنهجي فحسب ولكن متصارعة كذلك على مستوى حدة التصور المؤسس لقطبية هذه التوجهات في شكل ثنائية متضادة ستطغى على مستوى الفعل السياسي والحراك الاجتماعي في فترة التسعينيات في الجزائر، وفي بداية العشرية الثانية من القرن الحالي على مستوى المغرب العربي خاصة والعالم العربي بصورة عامة. وسيلعب قطبا هذه الثنائية دورا أساسيا في تجيش الأفكار داخل هذه الخطابات وترسيخ منطلقاتها الإيديولوجية في بنيتها السطحية والكامنة.

1- حدة الوعي وحساسية المرحلة:

لا يختلف اثنان في أن النخبة المثقفة- التي يتساءل المرحوم عمار بلحسن فيما إذا كان أصحابها 'أنثيلجنسيا أم مثقفون في الجزائر'؟⁽¹⁾ وفي هذه الفترة خاصة، كانت في غالب الأحيان صدى لما تحمله هاتان الثنائيتان من مبادئ سياسية وإيديولوجية وتشهره سلاحا في وجه تسارع حركة التاريخ التي حاول 'الإيديولوجيون الكبار' الذين يعتقدون عادة أنهم أولى من الجميع بالتلاحم النظري مع سياقاتها، توجيهها وفقا لرغباتهم ومصالحهم انطلاقا من اعتقادهم المطلق بقدرتهم على صناعة النخب التي تصنع بدورها الخطابات اللازمة للعب دور الإقناع أو التوجيه أو التحييد أو التعبئة، وشحن بطايراتها في اللحظات الحرجة لحركة التاريخ من خلال تحيين المنغصات النائمة في الجو الخلفي للبيت الوطني وإلقائها في ساحته الكبرى-المسماة عادة بساحة الشهداء- ليتلقفها المثقفون خاصة ويجتهدون حينذاك في تأجيج شراراتها وتعميمها في هشيم الواقع الاجتماعي.

ربما أعطت حدة الوعي بحساسية المرحلة التاريخية لعمار بلحسن فرصة النفاذ إلى عمق المسألة الثقافية من كوة أكثر اتساعا لم تعط لكثير من أبناء جيله، ومكنته من الاطلاع على واقع الممارسة الحياتية الآيل إلى التغير الجذري في بنياته والانتقال العنيف في حركيته-كما هي عادة المجتمع الجزائري- من مرحلة ما بعد الكولونيالية كما تصورها أدبيات المثقف الثوري إلى مرحلة إعادة تركيب صورة المجتمع الجزائري في ذهن الجيل الجديد من المثقفين بطريقة مختلفة عما كان 'الإيديولوجيون الكبار' الموروثون من الفترة الكولونيالية يخططون لترسيخه في ذهنيات هذا الجيل من خلال الإصرار على توجيه المنطلقات الفكرية للمسار الثقافي للأمة في المقررات التعليمية والخطابات الثقافية والبرامج الاجتماعية وتمديد فعاليتها المنعدمة إلى فترة الثمانينيات مما أدى إلى تكليس الرؤى الاستشراقية وتغليب التحليل غير الواقعي (الموصوف بالواقعي) لاحتياجات المجتمع دون الأخذ بعين الاعتبار انفتاح الساحة الفكرية والثقافية على أبواب لم تكن مفتوحة

من قبل أدت مباشرة إلى إيقاظ الروايات المختلفة للحادثة التاريخية المكبوتة بصورة متعمدة منذ أمد بعيد في المدونة الوطنية، وفتحت الباب أمام استيقاظ الأصوات المغيبة عن الساحة منذ الاستقلال وإزاحة فرضية توريث العمى الإيديولوجي المعمم على الأجيال القادمة المستعدة بغير معالم واضحة إلى الدخول في مغامرة القرن الجديد.

ولعلها الفترة التي تحولت فيها صورة الكثير من هؤلاء 'الإيديولوجيين الكبار' من فاعلين ثوريين أثناء الثورة وفي فترة الاستقلال إلى جزء من الإرث الكولونيالي في صورته الإنسانية المنفتحة على مآلات النخب المولودة تحت مظلتها الزمنية والمتغذية من ينبوعها الثقافي والألسني⁽²⁾، فأصبحوا بفعل الممارسة الشمولية للعمل السياسي والإيديولوجي في فترة ما بعد الاستقلال جزء من المشكلة بعد أن كان الكثير منهم عنصراً أساسياً في تعبيد الطريق الوعرة للوصول إلى الحل الذي أدى بالمجتمع الجزائري إلى الخروج من النفق المظلم للحقبة الاستعمارية، ذلك أن "الناس يشعرون بالحاجة إلى حرس، وهم يقلقون ويضطربون عندما يغدو الحراس ديماغوجيين يتملقون الشعب ويقلعون عن فرض أي إلزام متظاهرين بالتسامح عن جميع الأخطاء"⁽³⁾.

وربما كان عمار بلحسن أكثر المثقفين الجزائريين في تلك الفترة اقتناعاً بحتمية حركة التاريخ وهي تعيد ترتيب البيت الداخلي وفق تراتبية لم تعدها الواقع السياسي والاجتماعي في جزائر الثمانينيات، ولكن بطريقة كان يحذر من أن تقع فعلاً، فتلاحمت مأساته الشخصية المتمثلة من مرضه بمأساة المرض المعمم الذي ربما أبصره قبل غيره مقبلاً بخطى ثابتة للاستقرار في أوصال الإنسان الجزائري في فترة التسعينيات، فورث منه نصيبه الذي أدى به إلى استشراف حالاته المستعصية الآتية من العقد المتروكة بدون حل في عمق التاريخ الجزائري الذي لم يقرأ كتابه المفتوح على الأزمّة والمتروك مخطوطاً يحاوره الغبار بصوت جهوري مرتفع إلى اليوم، ولعله لذلك كان يحاول أن يقرأ حركية المجتمع من عمق اللحظة الممزوجة بمأساة الذات

وهي تعاني من ترهل الجسد آملا في أن تُكشف الغمة عن هموم الأمة⁴ وأن يرفع الداء المسلط عليها كما الطاعون على شعب طيبة.

ينتمي عمار بلحسن إلى جيل من المثقفين الجزائريين الذي عايشوا الثورة الجزائرية من دون أن يكون لهم السن الكافي للانخراط في العمل الثوري على غرار من سبقهم من المثقفين، فجيل الخمسينيات من القرن الماضي لم تتوفر له فرصة الالتحاق بالثورة نظرا لصغرسنه⁽⁴⁾، ولكنه تحمل وهو في العاشرة تقريبا قوة وقع ردة الفعل الكولونيالية على الفعل الثوري المصمم على الخروج من نفقها المظلم، وهو بذلك يكون -كما العديد من أبناء جيله ممن سيصيرون أدباء وكتابا وشعراء وباحثين في الجزائر المستقلة- قد تمثل الفترة الأكثر حساسية في تاريخ الجزائر المعاصر من حيث تأكيد الانتماء إلى الشعب والقطيعة مع النموذج الاندماجي الذي حاولت فرنسا الاستعمارية أن تفرضه على المثقفين الجزائريين فحاول العديد منهم إعادة إنتاجه بلغة المستعمر وتكريسه في خطابات ما قبل الثورة وأثناءها وبقي العديد منهم وفيها له بصور مختلفة خفية وظاهرة بعدها، ولعله "ذلك أصبحت الظاهرة الثقافية، وإن في فترة قصيرة، هي الشكل الذي مارس المجتمع الحديث من خلاله التأثير على المجتمع التقليدي[...]" فافرضا عليه المشاركة في حركة غريبة عن مساره⁽⁵⁾.

كما يكون عمار بلحسن قد انطبع -تماما كما أبناء جيله من المثقفين- بما حملته هذه الفترة من آلام في خضم مأساة الجرح الكولونيالي وهو يعمق الفعل الجذري في جسد الإنسان الجزائري من أجل إرغامه على تمديد فترة الخضوع للقيم الكولونيالية على الرغم من تغير الظرف التاريخي وشيوع المد الثوري الطامح إلى تحرير الإنسان المستعمر والداعي إلى سلوك الفعل الثوري طريقا وحيدا لتحقيق الحرية، ولعله، نظرا لشدة هذا الوقع المتعدد الأوجه، أن كان أثره باديا على هذا الجيل الذي ينتهي إليه المرحوم عمار بلحسن بصورة جلية، ليس في الاقتناعات الفكرية والإيديولوجية التي سيؤمن بها صادقا فحسب، ولكن في التوجهات التي سيسلكها في التعبير من مكونات

المرحلة التاريخية التي عايشها وهو طفل، وحاول أن يفك عقدها (أو الفكك من عقدها) وهو شاب مقبل على الحياة، وسعى إلى تجسيد اقتناعاته من خلال المشاركة في فعاليتها وهو رجل مندرج في فاعلية حركتها وفق ما وفرته له إمكانياته الفكرية من وعي بالمرحلة التاريخية التي أصبح هو وأبناء جيله ينتمون إليها في فترة الاستقلال.

ولعل ثقلا تاريخيا كهذا الذي يحمله على عاتقه كل جيل أتاحت فرصة التاريخ لمثليه أن يكونوا مخضرمين هو الذي سينجب في فترة الاستقلال العديد من الباحثين السوسيولوجيين الذين كان عمار بلحسن واحدا منهم في فترة شهدت طغيان الدرس الثوري وشيوعه على عموم التوجهات الفكرية والثقافية، وذلك على غرار عبد القادر جغلول والهوارى عدي ونذير معروف وعلي الكترو وغيرهم من الباحثين الاجتماعيين على الرغم من التفاوت النسبي بينه وبينهم في السن والاختلاف الكبير في الأطروحات وفي المناهج وفي الممارسات الألسنية⁽⁶⁾.

كما شهدت هذه الفترة اندراج معظم الدراسات والبحوث الجامعية خاصة ضمن الرؤية السياسية الرسمية والإيديولوجية المسيطرة وضمن منحنى تغليب التصور الاجتماعي في المنطلقات وفي طرائق التحليل وفي المناهج، وذلك كله نظرا لما كان يعانيه الحقل المعرفي المغلق من توحيد لتصورات النخبة المثقفة داخل مرجعيات الفكر الاجتماعي اليساري على الدرس الفكري والاجتماعي عموما وعلى طرائق الإبداع الأدبية وعلى مناهج النقد الأدبي بصورة خاصة، وأكد أن هذه الحالة قد أثرت، نظرا لتمامي طرحها النظري مع فكرة الانعتاق من الاستعمار والحماسة الحاملة التي أعقبت الاستقلال، على التوجهات الفكرية لهؤلاء المثقفين ومن بينهم عمار بلحسن، ولعل النهل من هذه المرجعية الوحيدة المتوفرة في تلك الفترة قد أثر على التصورات الأولية التي طبعت كتاباتهم الأولى فكانت صياغاتهم متأثرة بفكرة المرحلة وبحماس اللحظة وبالالتزام الصادق بما يمكن أن تحققه النضالات الفكرية والميدانية للمثقفين في مستقبلها القريب.

ولعل موهبة عمار بلحسن رحمه الله وتميزه بالنظر إلى الشرط الاجتماعي الذي عاشه- وأبناء جيله- في طفولته جعلاه يظفر بسهمين تلقفهما بذكاء حاد وجعلهما زادا لقوسه فمكناهما من توسيع زاوية النظر إلى الحقل المعرفي والإبداعي في الجزائر وكشفا له الأبعاد المتروكة في حواشيه: سهم علم الاجتماع وما يتيح لدارسه من معانية وتريث واتزان وموضوعية في الحكم على أسباب الظواهر الاجتماعية وعلى نتائجها، وسهم الأدب وما يتيح من توغل في فهم الذات والعالم بإحساس مرهف وعين فاحصة. وهو ما كان يتوفر لعمار بلحسن من خلال مساره الأدبي بوصفه مبدعا وقاصا⁽⁷⁾ قادرا على تطويع اللغة وإخضاع بلاغاتها للمنظور الاجتماعي وحقيقته المعبرة عن الواقع كما كان يعيشه في فترة ما بعد الاستقلال. وهو بهذه الحالة يكون من الأدباء القلائل الذين بقوا أوفياء للغة العربية فحاول أن يضيف لها أبعادا اجتماعية شعبية خاصة في كتاباته القصصية، معطيا بذلك الصورة المثلى لما يمكن أن يكون عليه مثقف منحدر من طبقة اجتماعية شعبية من وفاء لتصوراته الفكرية التي نشأ عليها والتي كان يعتبر من خلالها أن "الأدب الوطني كمؤسسة يعمل بلغتين، و ينتج جزائريته وهويته في سجلين أو مدونتين لغويتين متباعدتين"⁽⁸⁾. وهو ما اعتبره "مفارقة لا شك أنها تاريخية"⁽⁹⁾ في بنية الخطاب الأدبي الجزائري.

2- إشكاليات تجاوز الطرح السائد:

ولعل ما مكنه من التعامل مع واقع اللغة على مستوى الممارسة الإبداعية نابع من اهتمامه بـ"سوسيولوجيا الأدب" وما يوفره علم الاجتماع الثقافي، ميدان اختصاصه، من إمكانات الفصل المفاهيمي بين الأدب والإيديولوجيا، والتي جعلته سباقا، من بين زملائه الأدباء العرب خاصة في إدراك ما يمكن أن يعتري المفهومين من سوء فهم ينعكس بالضرورة على الإبداع في فترة كان فيها الخلط المتعمد بينهما يقود العديد من المثقفين والأدباء المتحمسين من أبناء جيله إلى اعتبارهما وجهًا واحدًا لعملة الطرح المشوب بشيء من الشمولية الزائفة والادعاء الوهبي. ولذلك كان عمار بلحسن يعتبر أن "الأدب

الثوري الأصيل هو الذي يكتب كتابة جيدة وأصيلة، ولكن هذا لا يعني أن الأدب إيديولوجيا وسياسة"⁽¹⁰⁾ وبناء عليه، فإن ما كان يعتبره "مهزلة ومأساة عندنا في الجزائر هو أن هناك من يقرأ بعض العناوين لبعض الكتب التقديمية ويدعي أنه تقديمي، وهناك من يقرأ بعض الآيات القرآنية الكريمة ويدعي أنه أصولي"⁽¹¹⁾. والأكد أنه كان يعي جيدا أن الخلط المتعمد أو الساذج في تصور أدب خاضع للإيديولوجيا مصدره حالة سوء الفهم المعمم التي تنخر المقاربة الثقافية التي يحملها المثقفون الجزائريون عن فعل الكتابة الإبداعية الأصيلة وعن فعل القراءة النقدية العارفة بخبايا سياقاتها التاريخية وأنساقها الفكرية والجمالية.

ولذلك، فهو عندما يحاول أن يقرأ 'القراءة' بوصفها "فعلا جماعيا وليس مجموعة من القراءات المنفصلة"⁽¹²⁾ ضمن ما يحققه المدخل السوسيولوجي من إمكانية ربط النص بواقع الممارسة القرائية، فإنه لا يتعمد تغليب وجهة النظر السائدة بقدر ما يحاول أن يجعل منها توجهها من ضمن عديد التوجهات ذات الصبغة الإيديولوجية المختلفة التي ينفث علمها فعل القراءة بوصفها فعلا متغيرا على الرغم مما قد تطرحه صورته الجمعية من ثبات. وهو بذلك يحاول الانفتاح على ما بدأت تشير إليه المدونة النقدية الجزائرية من مدارس نقدية جديدة كـ "نظرية القراءة" و "نظرية التلقي" لم يكن لها مكان في المدونة النقدية والإبداعية الجزائرية، جراء التركيز على المناهج الاجتماعية، في واقع الممارسة النقدية، لأنها كانت أبعد ما تكون، من حيث المرتكزات الفكرية والمنطلقات الإيديولوجية عما كان سائدا في صلب هذه المدونة من منهج اجتماعي في فترة السبعينيات والثمانينيات.

وهو، بهذا، يحاول كذلك أن يعرض لحالة الانتقال التي "شهدتها ظروف ثقافية وفكرية امتازت بأزمة الفاعل و"موت المؤلف" وتحلل القيم وتحولها إلى أشياء [...] وكأن قراءة النص الأدبي انتقلت على صعيد البنيات الداخلية والسياقات الخارجية من إيديولوجيا المؤلف والكاتب المتحكم في عملية البيان، وتوجيهه المصائر والتخييلات والرؤى إلى نزعة نصوصية داخلية أدت

إلى اكتشاف الأنا القارئ في النص وتعويض القارئ الجماعي بالقارئ الخاص⁽¹³⁾. ولعله كان يحاول، من خلال الانفتاح على جميع الزوايا الممكنة التي يتيحها التحليل السوسيولوجي للأدب، تجاوز الصورة النمطية التي تمثلها القيم الثابتة في المناهج الاجتماعية المتصرفة باليسارية من جهة، وفي تطبيقاتها على النصوص الأدبية من جهة ثانية. فلم يكن روبير إسكاريبت، صاحب كتاب (سوسيولوجيا الأدب)⁽¹⁴⁾، إنجيل العديد من الأدباء والنقاد الجزائريين وهم يلحون من خلال مقولاته على المزج الساذج بين الأدب والمجتمع في الفترة السبعينية وما بعدها، في نظر عمار بلحسن غير مدرسة قد "أخطأت موضوعها السوسيولوجي وأسئلته"⁽¹⁵⁾ بالنظر إلى ما يمكن أن تطرحه أسئلة الأدب على الكاتب وعلى القارئ معا من "شيفرات سيميائية وفكرية وإيديولوجية، هي الخطابات التي تمفصل مصالح واتجاهات ومنظورات اجتماعية وسياسية، تشكل بنيات فكرية ولغوية لجماعات معينة"⁽¹⁶⁾.

وربما جعله تميزه في استعمال هذين السهمين (الأدب وعلم الاجتماع)، وفي التحكم في مساراتهما الفكرية والجمالية المعقدة، أدبيا في نظر زملائه السوسيولوجيين وسوسيولوجيا في نظر زملائه الأدباء. وهذا ما لم يتوفر لأبناء جيله من الأدباء الذين انتهى معظمهم إلى مثقفين سلطويين يدافعون عن مصالحهم الخاصة، ولم يتوفر كذلك لأبناء جيله من السوسيولوجيين الذين اكتفوا بالسهم الأول فتعمقوا في الدرس السوسيولوجي الباحث عن تفسير العقد الآنية للمجتمع الجزائري في المطبات القديمة في التاريخ الجزائري من خلال محاولة تقويض الأطروحات الكولونيالية عند نوشي ولاكوست ودوكوا وغيرهم في الفترة الاستعمارية⁽¹⁷⁾ كما هو الحال بالنسبة لراحل عبد القادر جغلون رحمه الله، أو تعمقت في تحليل المسار التاريخي للمجتمع الجزائري بالنظر إلى القراءة الأنثروبولوجية للمدرسة الغربية المعاصرة خاصة عند عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو وهو يحاول أن يؤسس للدرس الأنثروبولوجي المعاصر من خلال دراسة سلوكيات المجتمع

القبائلي في الفترة الاستعمارية كما هو الحال بالنسبة للهواري عدي⁽¹⁸⁾، أو حاولت توصيف الأمكنة في المجتمع الجزائري⁽¹⁹⁾ ودراسة حراكه وفق النظرة الأنثروبولوجية التي تساءل التاريخ الاجتماعي المغاربي لما بعد الحرب⁽²⁰⁾ كما هو الحال بالنسبة لنذير معروف، أو حاولت النفاذ إلى عمق المجتمع الجزائري من خلال دراسة "فينومينولوجيا الوعي الوطني"⁽²¹⁾ والبحث عن "مسارات الأزمة العاصفة بالجزائر والعالم العرب"⁽²²⁾ كما هو الحال بالنسبة لعلي الكنز.

ولعل هذا الجيل من الباحثين السوسيولوجيين، ومن بينهم عمار بلحسن، كان من أكثر الأجيال ثراء من حيث الباحثين الجزائريين في مختلف التخصصات الإنسانية والاجتماعية، ومن أخصها تعمقا في فهم أزمة الأجيال التي عبرت مشروع الدولة الوطنية وجابهت لوحدها تحديات التاريخ واللغة والتأصيل والحداثة والانتماء والمجتمع والاقتصاد وغيرها من الإشكاليات المطروحة. وذلك بالنظر إلى العديد من الكتابات الأدبية والتاريخية التي كانت أكثر التفافا على مكونات الأزمة ومسبباتها، نظرا لما يحمله الدرس السوسيولوجي من أبعاد لا يمكن أن تتصل من الحقائق الاجتماعية وإفرازاتها على الواقع المعيش، ولا يمكن أن تزيف نتائجها الملموسة كما يمكن أن يحدث- وقد حدث فعلا- للكتابات الأدبية والتاريخية.

لقد أدرك عمار بلحسن رحمه الله بحدسه المتوهج وفطرته الطبيعية وكذلك بما أتاحه له حمله للسهمين والتوغل في أغوارهما، قبل العديد من الدارسين ما كان يكتنف المشروع التحديثي للدولة الوطنية من عطب أثناء محاولة تطبيقه على غرار المجتمعات العربية الإسلامية، والذي لم يكن ليدرك تناقضاته الجوهرية في فترة التطويل الإيديولوجي للحداثات المستوردة العديد من الدارسين الذين راهنوا على ضرورة التغيير الإيديولوجي القسري للمجتمع من خلال الدعاية إلى ما سيصبح استيرادا عشوائيا للحداثة الريفية مقابل التصدير التبذيري للكنز المادي للأمة، أو تفسيرها هجينا للفراغات الثقافية الآنية من خلال تغييب الأطروحات المعرفية المؤسسة

للمدونة الثقافية الجزائرية، أو تناسيا للعامل الجوهرى فى تحريك بنىات المجتمع الراكدة وهو حرية التفكير وحرية الاختيار اللذين لا يمكن أن يغيبا عن كل معادلة حضارية تضع الإنسان ومرجعياته فى لب المغامرة الوجودية وفى آنية تحققها على مستوى الواقع فتحقق لصانعيها درجة الرقى الطبيعى بأفراد المجتمع إلى مستويات أحسن مما كانت تكابده فى المرحلة الكولونيالية. وهو بذلك يكون قد حاول رحمه الله أن يضع اليد على الجرح فى ما يتعلق بإشكالية التحديث فى المجتمعات العربية والإسلامية ودورها فى التأسيس لخطاب مناوئ فى سيطرته على اللحظة بأدوات إجرائية خشنة أحيانا ومرنة أحيانا أخرى وفق ما تقتضيه المصلحة العليا للدولات الوطنية، وغير واضح المعالم فى تبنىهِ لأطروحات الحداثة كما أنتجها الفكر العقلانى الغربى، ومن هنا، فإن عمار بلحسن يستعمل "مصطلح حداثة معطوبة أو معاوقة للدلالة على أن الحداثة[..] نتاج العقلانية والإبداعية والذاتية الفلسفية والجمالية والعلمية والتكنولوجية، الغربية أو العالمية"⁽²³⁾ وللتذكير بفارق المناورة التى تستعملها الأنظمة والنخب فى المجتمعات المتخلفة لتزييف الوعى فى هذه المجتمعات وتعطيل مساراتها التحررية.

3- رؤية الأديب وصرامة السيوسولوجي:

ولعل الذى يقرأ كتاباته فى المرحلة الأخيرة من حياته يدرك مدى اهتمامه بالبحث عن الموانع والمعوقات الجوهرية التى تقف جدارا فى وجه تأسيس مجتمع متماسك من حيث نظرته للذات وللآخر، وذلك من خلال توسيعه للحقل السوسيو-أدبى⁽²⁴⁾ الذى كان يشغل عليه سابقا ومحاولته إدراج مجمل الأيقونات الطارئة على الخطاب الفكرى والفلسفى العربى فى فترة الثمانينيات وبداية التسعينيات فى كتاباته التى سجل فيها ما كان يلاحظه من تناقضات مفاهيمية فى الأطروحات المعرفية لما يسميه بـ"الأصوليات الدينية واللغوية والتغريبية"⁽²⁵⁾ المسيطرة على الساحة الثقافية والداعية إلى تثبيت اقتناعاتها فى واقع المجتمع الجزائرى. وهو على الرغم من توجيه النقد المؤسس لهذه الأطروحات من خلال ما كان يبدو أنه يخيفه فيها وهو طرحها

العنيف للمشاكل المتراكمة في الخطاب السياسي والفكري الجزائري منذ فترة ما قبل الاستقلال، إلا أنه كان يحاول أن يقف إلى جانب ما كان يبدو له منطقيا من حيث أن نوعية الأسباب تؤدي في نظره حتما إلى النوعية نفسها من النتائج، ولعله من منظور الباحث الأكاديمي الحريص على اتزان مواقفه في الحكم على العديد من الظواهر كان يحاول أن يطبع أحكامه بالطابع العقلاني الذي يبعدها عن الطرح المتطرف.

فعلى الرغم من اقتناعه بأن الأصولية الدينية تسعى إلى السلطة "نظرا لكونها حزبا سياسيا أو أحزابا"⁽²⁶⁾ وهذا ما أثبت الحراك الاجتماعي الحالي صحته، فإنها تعتبر في نظره حركة ثقافية "أعادت طرح مشكلة التعريب والهوية والانتماء العربي الإسلامي للجزائر"⁽²⁷⁾ في فترة حساسة من تاريخها المعاصر. وهو حينما يريد استنطاق الواقع بالبحث عن أسباب عودة طرح إشكالية الهوية والتعريب في المجتمع الجزائري في الصورة المتشنجة التي شهدتها مرحلة الثمانينيات في الجزائر خاصة والتي "تحولت إلى علاقات غامضة استمرت لمدة ربع قرن بعد الاستقلال"⁽²⁸⁾، لا ينكر أنها كانت رد فعل منطقي لتجذر الأصوليات المضادة في منظومة السلطة الثقافية التي مكنت التيار الفرانكفوني التغريبي والنزعة البربرية النخبوية من الاستيلاء على مساحات التعبير وتوطيد مكانتها في المجتمع بالنظر إلى ما كانت تعانيه الطبقات الفقيرة المتكونة من المتروكين على الهامش الذين لم يستفيدوا من ريع النظام الاشتراكي في السبعينيات ولم يصلوا إلى تحقيق مطالبهم المادية والمعنوية في فترة الانفتاح المزيف التي شهدتها الثمانينيات. ولذلك كان عمار بلحسن يعتبر أن الأصولية الدينية "ظهرت حركة شعبية وجماعية مضادة للنزعات النخبوية الأمازيغية والفرانكفونية ورد فعل عليهما"⁽²⁹⁾. ولعله في طرحه هذا كان يضع نصب عينيه عديد التجارب التي مرت بها المجتمعات المشرقية حيث كان الخطاب الإسلامي أكثر تبلورا في التأسيس للفعل السياسي عن طريق تفعيل الحركة المطالبة والتمكين' للفكرة الإسلامية على أرض الواقع بعد الانتصار الذي حققته الثورة الإسلامية في إيران على أكثر

الأنظمة رجعية في العالم الإسلامي وهو نظام الشاه وبداية هذه الحركات في الحلم بإمكانية الوصول إلى السلطة بعد التجربة التي حققها الإسلام السياسي في إيران. ولعل الجميع يعرف اليوم كيف انتهت هذه الحركات أثناء تصادمها مع حراس المشاريع التلفيقية للسلطة السياسية في مصر خاصة وفي العديد من الدول العربية الأخرى.

وربما كان عمار بلحسن يضع أمام عينيه تجربة الحراك الاجتماعي الذي شهدته الجزائر في ما اصطلح على تسميته بـ'أحداث أكتوبر 1988' والذي أدى إلى قلب العديد من الموازين على مستوى الخطابات السياسية والفكرية وغير بناء على ذلك العديد من الممارسات التي أدت إلى الانفتاح المعروف على الحقل السياسي وحرية الممارسات ثم ما تبعه من انغلاق فجائي أدى إلى دخول قطبي المشروعين المتصارعين في خضم المواجهة السياسية العلنية المنذرة بتأزم الوضع نظرا لانسداد أفق التصورات التي حاولت تحقيق المشاريع التلفيقية من جهة وانقطاع إمكانية الحوار الإيجابي من جهة ثانية بين أصحابها وأصحاب المشاريع المضادة من جهة أخرى.

إن البعد الموضوعي الذي يوفره الدرس السوسيولوجي في تحليل الظواهر الاجتماعية هو الذي مكن عمار بلحسن من طرح الإشكاليات الجوهرية التي انبنت عليها المواجهة الدموية بين هذين القطبين في فترة لاحقة كان عليه أن يودع بداياتها توديع الشاهد الرائي المحذر من عواقبها، وهي إشكاليات التاريخ والانتماء والهوية واللغة والمجتمع وغيرها مما كان يعتبره وغيره من الدارسين محركا أساسيا لقاطرة المشروع الثقافي والحضاري للدولة الوطنية والتي كان يهيمن عليها مفهوم "دولة-أمة" (Etat-nation) [التي] تلغي الاختلافات والتناقضات بتسوية إيديولوجية تحت لفظة 'الثقافة الوطنية'⁽³⁰⁾. ولعله البعد الموضوعي نفسه الذي مكن زملاءه علماء الاجتماع من اتخاذ مواقف تبدو اليوم، وبعد مرور عقدين من الزمن، متزنة وموضوعية بالنظر إلى مواقف عديد المثقفين المتموقعين داخل هذه القطبية من أزمة التسعينيات التي لم يقدر لعمار

بلحسن أن يعايشها على الرغم مما كان يحمله من هم ظاهر بغموض مآلاتها
لم يكن خفيا على من عرفه عن قرب أو من قرأ كتاباته في أواخر مشواره.

وقد كان لهؤلاء العلماء عديد الكتابات التي حاولت أن تتقصى مواطن
الداء في عمق الأزمة وتبحث عن أسبابها التاريخية والفكرية والاجتماعية كما
هو الحال بالنسبة للكتابات التي شرح فيها عبد القادر جغلول مسببات
الأزمة، أو المقالات التي حاول فيها الهواري عدي أن يرصد التغيرات الطارئة
على الخطابات السياسية وتأثيرها على السلوكيات الاجتماعية في فترة
التسعينيات، أو ما كتبه علي الكنز من تحاليل لبنية المجتمع الجزائري
وعلاقته بالأزمة في الفترة نفسها.

لقد غيرت أزمة التسعينيات العديد من المواقف التي كانت تبدو راسخة
رسوخ الجبال في أذهان العديد من الباحثين والمفكرين وعلماء الاجتماع ممن
مكنهم الوعي العميق بخطورة المرحلة الثمانينية وما شهدته من تحولات
جذرية على المستوى العالمي من النظر إليها بغير مرآة الإيديولوجيا وقنوات
التجيش التي تستعملها الأصوليات المعاصرة المتموقة في أبراجها الفكرية
المعتادة عن طريق "الروموت كونترول" السياسي الذي يتحكمون من خلاله
في طبيعة الحراك ونوعيته ومآلاته، ولعل ما تشير إليه كتابات عمار بلحسن
الفكرية والسوسيولوجية خاصة في أواخر حياته كفيل بالوصول إلى رصد
العين الثاقبة التي كانت تنذر من داخل نصوصه بما كان سيحصل للمجتمع
الجزائري من شرخ في التصورات وانقطاع في قنوات الحوار والخروج الكلي
من حقل التغطية المعرفية الكفيل بدرء المصاب ورتق الممزق في بنياته
الاجتماعية الهشة.

- خاتمة:

لقد استطاع عمار بلحسن أن يستشعر في أواخر حياته مواطن الخطر في
هذه البنيات الهشة وأن يرصد مواضع الداء بحسه النقدي ورؤيته
الاستشرافية، ولكن كذلك بما وفره له الدرس السوسيولوجي النقدي من
إمكانيات وضع المقدمات والنتائج في أماكنها الصحيحة من دون القفز على

المسلمات أو السطو على النتائج وتوجيه مساراتها إلى غير الوجهة الآيلة إليها من خلال قراءة لا تدعي امتلاك الحقيقة بالنظر إلى ما كان يوفره التعالي الإيديولوجي من كبر زائف لكثير من المثقفين الجزائريين المتموقعين داخل الأبراج الرسمية والمتاجرين عن بعد بجرح المرحلة في كتاباتهم الفكرية والإبداعية. فقد حاولت كل كتاباته أن تطرح الإشكاليات المركزية التي كانت ولا زالت تستحوذ على الخطاب في فضاءاته النظرية وتستولي على الممارسة في مساحاتها الواقعية بعين فاحصة ورؤية متنورة زاهدة.

- هوامش وإحالات:

(⁹) - من رسالة مؤرخة في: 1992/12/08 وموجهة من طرف الكاتب إلى زوجته وهو يهيم بالسفر إلى فرنسا للعلاج. ينظر: بلحسن، عمار. وداعا فاطنة. وداعا أولادي. التبيين. جمعية الجاحظية. عدد: 7. الجزائر. 1993. ص: 32.

1- ينظر: بلحسن، عمار. أنتيلجنسيا أم مثقفون في الجزائر؟. دار الحداثة. بيروت. 1986.
2- يقول عبد القادر فيدو عن قصة التنين لعمار بلحسن: "تساند مظاهر الرمز الدلالي للثنين لتشكل جدارية صماء تنطق بمعاناة الشعوب، وتزداد المعاناة اتساعا حين تصادر أحلامهم بتوقيع من حكوماتهم، وهكذا تتقاطع في نسيج القصص خطابات إيديولوجية واجتماعية وتاريخية. ولعل أكثر تجليا هو الخطاب السياسي بوصفه إحدى الفعاليات المهيمنة، ونلاحظ نزوغه أكثر في جانب التبعية الاقتصادية، والوهم الاشتراكي". ينظر: فيدو، عبد القادر. حدود السرد في قصة التنين لعمار بلحسن. ضمن: التبيين. جمعية الجاحظية. عدد: 7. الجزائر. 1993. ص: 69.

3- روي، ريمون. نقد المجتمع المعاصر. ترجمة عادل العوا. منشورات عويدات. باريس - بيروت. 1978. ص: 27.
4- "ولد عمار بلحسن يوم 13 فيفري 1953 في منطقة مسيردة بتلمسان، لم يتلق في بداية دراسته تعليما منظما لكنه استطاع التغلب على الصعاب ومواصلة الدراسة لتتوج مسيرته العلمية العظامية بدكتوراه في علم الاجتماع. ورحل الأديب والسوسيولوجي إثر مرض عضال تاركا وراءه قصصا ودراسات عديدة أهمها المجموعات القصصية: «حرائق البحر» وهي أول مجموعة قصصية تصدر له ثم تلتها «أصوات»، و«فوانيس». كما كانت له بحوث في قضايا الثقافة الجزائرية والإنسان الجزائري والتي صدرت في كتب من ضمنها: «الأدب والإيديولوجية»، و«كشف الغمة في هموم الأمة» والذي يدعو فيه لضرورة تنقيف السياسة بدل تسييس الثقافة. كما أصدر بداية الثمانينات كتابا مهما بعنوان «إنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر؟»، وأخيرا «يوميات الوجد» التي صدرت في طبعة محدودة عن جمعية «الجاحظية»، كما كانت له بحوث في قضايا الثقافة الجزائرية والإنسان الجزائري. وتوفي يوم 29 أوت 1993. ويعتبر الأديب والسوسيولوجي الراحل بلحسن رائدا من رواد البحث في سوسيولوجيا الرواية والقصة في الجزائر». ينظر:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1_%D8%A8%D9%84%D8%AD%D8%B3%D9%86

5-TURIN. Yvonne. Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale. Ecoles. Médecines, Religions. 1830-1880. 2 Ed. ENAL. Alger. 1983. P: 25.

6- كتب كل هؤلاء دراساتهم وأبحاثهم ونشروها باللغة الفرنسية. ويكاد يكون عمار بلحسن الوحيد من أبناء جيله من الباحثين في العلوم الاجتماعية الذي كتب بحوثه باللغة العربية. والأكيد أن لميوله الأدبية والإبداعية دورا في

تحديد هوية الشكل الألسني الذي طبع توجهه البحثي. وقد كان له رأي من مسألة اللغة وارتباطها الإشكالي بالهوية الوطنية في حالة الجزائر خاصة من دون الدول العربية الأخرى. كما كان له موقف واضح من مسألة الكتابة باللغة الأخرى. وهو موقف نادر بالنظر إلى المقاربة التي يحملها عموم المثقفين خاصة من لهم علاقة بالعلوم الاجتماعية التي كانت تدرس في عمومها باللغة الفرنسية، عن اللغة الوطنية واللغة الأجنبية في الجزائر خاصة بالنظر إلى حساسية ما كان يطرحه المشكل الألسني من صراعات سياسية وإيديولوجية في كل مرة تثار فيه النعرات السياسية أو يطرح موضوع المنظومة التعليمية على طاولة النقاش. يقول في أحد بحوثه التي تناولت هذه الإشكالية بنظرة استشرافية ربما أثبت الوقت الراهن، وبعد مضي أكثر من عقدين، صحتها: "فبدون لغة توحيدية، ليس هناك أدب وطني معبر عن مجامع مستقل، وهوية وطنية، وطلب ثقافي وأدبي متزايد لأجيال عربية اللسان والتعليم والتكوين". ينظر: بلحسن، عمار. سؤال الأدب الوطني. ضمن: التبيين. ص: 91.

7- بدأ عمار بلحسن أدبيا وقاصا مهتما بالكتابة الأدبية وشغله فيما بعد تكوينه الجامعي بالاشتغال بالكتابة الفكرية والسوسيولوجية وتنوع مداركه المعرفية من خلال احتكاكه بعالم الأدب. وقد جسد ذلك في مجموعاته القصصية المشهورة (حرائق البحر) التي نشرها في بداية الثمانينيات، ثم تلتها أعماله القصصية الأخرى (الأصوات) و(فوانيس)، غير أن له دراسات نقدية عن الرواية الجزائرية من منظور سوسيولوجي كان يبحث فيها عن العلائق الإيديولوجية في الرواية الجزائرية كالتى كتبها عن رواية الزلزال للطاهر وطار تحت عنوان (صراع الخطابات حول القص والإيديولوجيا) ونشرها في مجلة (فصول) سنة 1989. ينظر على سبيل الحصر: بلحسن، عمار. الأصوات. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1983.

8- بلحسن، عمار. سؤال الأدب الوطني. التبيين. الجاحظية. ص: 91.

9- بلحسن، عمار. م. ن. ص: 91.

10- بلحسن، عمار. الابداع، الثقافة والسلطة. التبيين. ص: 163.

11- بلحسن، عمار. م. ن. ص: 163.

12- بلحسن، عمار. قراءة القراءة. مدخل سوسيولوجي. التبيين. ص: 141.

13- بلحسن، عمار. م. ن. ص: 141.

14- معروف أثر أعمال روبير إسكاريبت المتمحورة حول سوسيولوجيا الأدب في الأوساط الأدبية المسارعة خلال فترة السبعينيات إلى تبني الرؤية الاجتماعية والمذهب الواقعي. ومعروف كذلك أثر أعمال هذا الكاتب في العديد من الدراسات النقدية ذات التوجه نفسه في الفترة نفسها وطيلة فترة الثمانينيات. ولعل عمار بلحسن من الأوائل القلائل الذي تنبه إلى الرؤية المتكسفة التي كان يحملها المثقفون الجزائريون من خلال توظيفهم للرؤية التي ضمنها إسكاريبت أعماله حول دور الأدب وماهيته وعلاقته بالمجتمع. كما كان سباقا في انتباهه إلى إمكانية تجاوز أطروحاتها. ينظر: إسكاريبت، روبير. سوسيولوجيا الأدب. ترجمة: أمال أنطوان عرموني. منشورات عويدات، بيروت/ ESCARPIT, Robert. Le Littéraire et le social. 1978. ص: 26 وما بعدها. كما ينظر: Eléments pour une sociologie de la littérature. Paris. Flammarion.. 1970. p.p.: 10-41..

15- بلحسن، عمار. التبيين. قراءة القراءة. مدخل سوسيولوجي. ص: 141.

16- بلحسن، عمار. م. ن. ص: 141.

17- ثمة نقطة ارتكاز أساسية اعتمد عليها الراحل عمار بلحسن وكذلك زملاؤه من علماء الاجتماع في تحليله للمنغصات الفكرية والثقافية والتاريخية التي تعيق فهما أعمق لحركة المجتمع الجزائري في ما كان يخبئه من مفاجآت غير متوقعة في الثمانينيات من القرن الماضي. وهو بهذا الاهتمام يلتقي في مستوى ما مع عبد القادر جفول ومالك بن نبي وغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع على الرغم من اختلاف زوايا الطرح المقاربة بينهم. وقد انصبت الأعمال التي قدمها عالم الاجتماع الراحل عبد القادر جفول حول قراءة التاريخ الوسيط والحديث للجزائر وللمغرب العربي من منظور تحليلي يستقي الدرس الاجتماعي مما أنتجته الصراعات الثقافية في فترة الاستعمار في الجزائر وفي المغرب العربي. وهو وإن كان يختلف من حيث المنطلقات الإيديولوجية وطرائق البحث ومناهجه عن

المفكر مالك بن نبي إلا أنه يلتقي معه في تحليل موضوع الصراع الفكري والثقافي في الفترة الاستعمارية. ولعل هذا ما يتطرق إليه مالك بن نبي في كتابه (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) حيث يقول: "وهنا يبتدئ الصراع الفكري على حقيقته إذ أن الاستعمار سوف يجتهد في هذا الفصل الجديد في امتصاص القوى الواعية بأي طريقة ممكنة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة، ومن البديهي أنه سيحاول أولاً تعييتها لحساب فكرة متجسدة حيث تصبح أقرب إليه منالاً، لأنه يمكنه مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء". ينظر على سبيل المقارنة: بن نبي، مالك. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دار الفكر. دمشق. 1981. ص: 16. ينظر: جغلول، عبد القادر. الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر. ترجمة سليم قسطون. دار الحداثة. بيروت. 1984. ص: 22 وما بعدها. وينظر: جغلول، عبد القادر. تاريخ الجزائر الحديث. دراسة سوسيولوجية. تر: فيصل عباس. دار الحداثة بيروت/ديوان المطبوعات الجامعية. ط: 3. الجزائر. 1983. ص: 25 وما بعدها. وينظر: جغلول، عبد القادر. مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط. تر: فضيلة الحكيم. دار الحداثة. بيروت. 1982. ص: 6.

18- ينظر: عدي، الهواري، ADDI. Lahouari. Sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu. Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques. Paris Ed. de la Découverte. 2002. – كما ينظر: عدي، الهواري. الاستعمار الفرنسي في الجزائر. سياسة التفكيك

الاقتصادي الاجتماعي، ترجمة: جوزيف عبد الله. دار الحداثة. بيروت. 1983.

19- ينظر: معروف، نذير. L'EAU. NADIR. Marouf. LA TERRE. Passé et présent des oasis occidentales (Algérie). Ed. L'Harmattan. Paris. 2010.

20- ينظر: معروف، نذير – ينظر: NADIR. Marouf. Les fondements anthropologiques de la norme maghrébine. Hommage à Jack Berque. Ed. l'Harmattan. Paris. 2005.

21- Ali. « L'Algérie et la modernité ». Contribution de .EL KENZ Ed: Codesria. l'auteur: « esquisse d'une phénoménologie de la conscience nationale » Karthala. Dakar-Paris. 1989.p: 293.

22- ينظر: الكتز، علي. EL KENZ. Ali. « Au Fil de la crise: 5 études sur l'Algérie et le monde arabe ». Bouchène Alger 1991.p: 163.

23- بلحسن، عمار. الحداثة المعطوبة. التبیین، هامش الشروحات. ص: 17.

24- ينظر: بلحسن، عمار. نقد المشروع، الرواية والتاريخ في الجزائر، التبیین، ص: 95. وينظر كذلك: بلحسن، عمار. سؤال الأدب الوطني، التبیین، ص: 85. وغيرها.

25- بلحسن، عمار. الحداثة المعطوبة، التبیین، ص: 17.

26- بلحسن، عمار. م. ن. ص: 20.

27- بلحسن، عمار. م. ن. ص: 20.

28- بلحسن، عمار. التبیین، سؤال الأدب الوطني، ص: 87.

29- بلحسن، عمار. الحداثة المعطوبة، ص: 20.

30- بلحسن، عمار. (التبیین)، سؤال الأدب الوطني، ص: 87.